

عالم العرب والعرب في العالم *

■ إعداد: رضوان السيد

إنّ الذي دفعني إلى مراجعة الكتب الأساسية الحديثة التي دارت حول موضوع: العرب في التاريخ والحاضر قراءتي لكتاب ماكنتوش الصادر عام 2019، فهو على سعته - وأنه أدنى إلى أن يكون كتاباً في الثقافة العامة عن العرب - يطرح أسئلةً جديدةً وتبصّرات ثاقبة بحيث يمكن الزعم بأنه مذهبٌ جديدٌ في الكتابة التاريخية عن العرب. وهناك بالطبع كتب أخرى في الأزمنة الحديثة انصرفت للتأريخ للعرب غير الأربعة التي ذكرتها في الحاشية. هناك مثلاً كتاب برنارد لويس: العرب في التاريخ، الذي كُتب أواخر الأربعينات وما يزال يُطبع حتى اليوم. وهناك كتابٌ قيّمٌ عن العرب وضعه الدكتور صالح أحمد العلي في السبعينات، لكنه ظلّ عند جزئه الأول. لقد تعمّدتُ إيراد الكتب الأربعة فقط بوصفها تمثّل مناهج مختلفةً في فهم العرب، وجوداً

* هذه المقالة هي قراءة في أربعة كتب عن العرب وتاريخهم:

- Tim Mackintosh-Smith: A 3,000-Year History of Peoples, Tribes and Empires, 2019.
- Philip Hitti: History of the Arabs, 1970.
- Hourani, Albert: A History of the Arab Peoples, 2002.
- Rogan, Eugen: The Arabs: A History, 2011.



وتاريخاً ورسالة. ويمكن عدّها المناهج الرئيسة في الكتابة التاريخية عن العرب في الأزمنة الحديثة والمعاصرة.

أقدم الكتب الأربعة بالطبع هو كتاب فيليب حتّي، وقد بدأ بتأليفه في أربعينات القرن العشرين، وصدر بين الأربعينات والخمسينات في ثلاثة أجزاء، وقد اختصره في جزءٍ واحدٍ فيما بعد، بحيث صار كتاباً مدرسياً Text Book في الجامعات الأميركية - ولدى الأميركيين مدنيين وعسكرياً - ممن يُرسلون للخدمة في الشرق الأوسط. وهو يبدأ بالتاريخ القديم للعرب قبل الإسلام. ولأنه لبناني الأصل، والأميركيون يتأثر أطفالهم وفتيانهم بأخبار العهد القديم عن الشرق؛ فإنه اهتمّ كثيراً في الجزء الأول بالشعوب القديمة في الشرق الأوسط وبينها العبرانيون والكنعانيون والفينيقيون.. والعرب. لكنه ما استفاد بما فيه الكفاية من الأعمال التاريخية الكبرى عن العرب في الشرق القديم، والتي توالى ظهورها منذ ثلاثينات القرن الماضي؛ مثل كتاب Altheim عن تاريخ العرب القديم زمن البابليين والأشوريين، ولا من أعمال Von Wissmann عن الحضارة اليمنية القديمة وعلاقتها باليهودية والمسيحية. ولدينا - إضافة إلى ذلك وعن «الجاهلية الثانية» أي القرون الميلادية الخمسة أو الستة قبل الإسلام - كتاب جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (9 مجلدات)، وكتب (عرفان شهيد) الأربعة عن تاريخ العرب والعلاقات مع بيزنطة فيما بين القرن الثالث والقرن السادس للميلاد. ولا ينبغي أن ننسى كتاب Hoyland عن العرب من العصر البرونزي وإلى ظهور الإسلام. وهويلاند نفسه نشر كتاباً لافتاً عن الأخبار غير العربية عن الإسلام في القرنين السابع والثامن للميلاد. وكل ذلك بالطبع لا ينقص من قيمة كتاب فيليب حتّي؛ لأنه هو الذي استنّ هذه الطريقة في الكتابة عن التاريخ العربي بالبدء بالعصور القديمة (قبل الميلاد) فالعصور الكلاسيكية (من الأول للسادس الميلادي). أما الجزآن الباقيان من الكتاب ففيهما سردٌ موجزٌ لتاريخ العرب في الإسلام، تأثر فيه حتّي بكتاب فلهاوزن: الدولة العربية وسقوطها (1901)، والذي كان يعدّ القرنين الأولين للدولة بمثابة إنجاز عربي، وتاريخ قومي للعرب. وللكتاب اهتمامٌ آخر هو إبراز دور المسيحيين السريان في

الحضارة العربية / الإسلامية. وهو اهتمامٌ تطوّر لدى المؤرخين العرب ذوي الأصول المسيحية في كتاباتهم عن حياة المسيحيين في ظلّ الإسلام.

بدايات ماكنتوش في كتابه: تاريخ العرب تختلف عن بدايات حَتّي ونهاياته؛ فقد استشهد في مطلع كتابه الضخم عن الثلاثة آلاف عام من تاريخ العرب (1400 عام قبل الإسلام، و1400 عام في الإسلام) بعبارةٍ للمسعودي المؤرخ في كتابه «مروج الذهب» أنّ تاريخ العرب يشبه لآلئ متناثرة، والمؤرخ هو الذي يجمعها وينتقيها وينظّمها؛ لتصبح بمثابة القلادة التي توضع حول أعناق الحسنات! وقد بدأ بخطّين ناظِمين لتاريخ العرب: خط تمثيلهم للبداءة على

استشهد ماكنتوش في مطلع كتابه الضخم عن الثلاثة آلاف عام من تاريخ العرب (1400 عام قبل الإسلام، و1400 عام في الإسلام) بعبارةٍ للمسعودي المؤرخ في كتابه «مروج الذهب» أنّ تاريخ العرب يشبه لآلئ متناثرة، والمؤرخ هو الذي يجمعها وينتقيها وينظّمها.

أطراف الحضارات والإمبراطوريات، وخطّ اللغة العربية واللسان العربي، والذي بدأت آثاره هزيلةً بعد القرن الثالث الميلادي حتى بلغ الذروة في الكتاب الأول باللغة العربية: القرآن الكريم. ما قبل القرآن هناك ألف وأربعمائة عام من التوهان بين التبدّي والتحضّر من جهة، ونشوء الحواضر الصغيرة على طرق القوافل وظهور الدويلات التابعة. والواضح أنّ ماكنتوش وضع خريطةً مسبقةً لكتابه، وهو ذكيٌّ في انتقاء نقاط التواصل والتوصيل؛ لأنه تخصص في كتابة الكتب الواسعة عن الحضارات والشخصيات. ولذلك اختار ثلاثة جوانب أو محطات للإنارة على شمال الجزيرة

(الحجاز ونجد وتهامة) الذي بزغ فيه المشروع العربي الكبير؛ بينما كانت تلك المساحات الداخلية شديدة الإظلام قبل الإسلام: الجانب العراقي، والجانب الشامي، والجانب اليمني. والإشارة الأقدم من الجانب العراقي لوحة آشورية لأسرى عرب (Aribi) من القرن التاسع قبل الميلاد، بعد هزيمة ملكتهم شمس أو شمسة في معركةٍ مع الملك الأشوري شلمنصر الثالث عام 853 ق.م. أما المشهد من الجانب الشامي ورغم غناه في العلائق بالبيزنطيين ومن قبلهم الرومان؛ فإنّ ماكنتوش يختار رسماً على حائطٍ في قصر الحَيْر الغربي (بالصحراء الأردنية)

يصور الخليفة الأموي جالساً (عبد الملك أو الوليد ابنه)، والملوك يقدمون له فروض الولاء والطاعة؛ فمن هم أولئك الملوك وهل هم أربعة أم ثمانية؟ أم إنها تصوّرات الرّسام المسيحي للممالك الأربع حسبما ورد في العهد القديم ورؤيا يوحنا؟! والذي أراه أنّ التفاصيل ليست مهمة؛ بقدر ما هو مهمّ أن نلاحظ أنّ العرب في ذلك الزمن السحيق (القرن التاسع قبل الميلاد) كانت عندهم مملكةٌ ومملكة تجرّو على مصارعة الإمبراطورية في بلاد ما بين النهرين حتى لو انهزمت. وبالنسبة للجانب الثالث (اليمن وحضرموت وعمّان) فإنّ ماكنتوش - وهو يعرض تاريخ الممالك المتعاقبة وعظمة سدّ مأرب - يعود فيلاحظ أنه بحسب العهد القديم والقرآن فإنّ السبئيين أو مَنْ قبلهم كانت تحكمهم أيضاً ملكة، تسميها الأساطير اليمينية: بلقيس! ولا ينبغي أن ننسى مرة أخرى من الجانب الشامي زنبوبيا ملكة تدمر ومجدها في القرن الثالث الميلادي.

يبقى ماكنتوش في المرحلتين القديمة والكلاسيكية (900 ق.م. - 600 للميلاد) لبعض الوقت؛ لكنه يختار آية قرآنية تشرح التصور القرآني لترتيبات الاجتماع الإنساني: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾ [الحجرات: 13]. وهو يذكر الآراء المختلفة لدى المفسّرين والنسابة في الفروق بين الشعوب والقبائل؛ لكنه لا يخرج عن التصور العام: الحَضْر والبدو. وهو يعدّ السبئيين والأنباط شعوباً؛ بينما يرى الآخرين (في الجنوب والشمال) من البدو. وهو يستنصر لرأيه أنّ الأولين كانوا يعيشون على الزراعة والتجارة فعندهم مدن وقرى. والواقع أنّ المسانيد (= النقوش) السبئية والحميرية المنتشرة على صخور جبال اليمن وفي واحاتها تقول: سبأ وعربهم، وحضرموت وعربهم، وظفار وعربهم. لماذا هم «عربهم»؟ هل كانوا الرعاة أو الفرسان؟ لكنّ من ناحيةٍ أُخرى كانت في شمال الجزيرة بلدات وقرى ومكة أم القرى، وكان منهم التجار والفلاحون وأهل البادية مثل الجنوب العربي. وأن تكون قبيلياً لا يعني أنك من أهل البادية والتنقل؛ فقريش بمكة ومنهم أهل البطاح والظواهر بمعنى أنه كانت لمكة باديتها، وبينهم تحالفات لكنهم قد يتخاصمون (انظر حرب الفجار حيث حاولوا احتلال مكة). أمّا يثرب ففيها الأوس والخزرج ويهود، وكانت الخصومات والحروب فيما بينهم. وإلى ذلك

ما كانت العلاقات مع البدو ومن حولهم جيدة. إنما علينا أن نعرف أنّ المشروع العربي/ الإسلامي إنما قام على كواهل أهل الحواضر مهاجرين وأنصاراً. فالحاضرة قوية في الشمال أيضاً، لكنّ البداوة ما انتهت في ظلال الإسلام وعزّ العرب، حتّى عندما تحدّث القرآن عن «الأعراب» وهاجمهم.

وعلى أي حال؛ فإنّ ماكنتوش يرى أنّ المشروع العربي العالمي قام على اللسان أو القرآن. وهو ليس الأول الذي يفتن بشخصية النبي ﷺ ليس بوصفه شخصية مبدعة فقط؛ بل بوصفه قائداً سياسياً أيضاً. شخصية الرسول ﷺ الفريدة هي في مشروعه العالمي الذي أقام أمة هائلة الحجم والتوحد في

الماضي وفي عالم الحاضر والمستقبل. وهو يؤكّد على أنه - صلوات الله وسلامه عليه - كان رجل دولة كبيراً. وهذا أمر مهم؛ إنما الأبرز: الأمة والحضارة، والتتان كونهما ورعاهما إلى اليوم: القرآن؛ ولذلك لا يقارن به أحد من كبار أمته، ولا كبار الأمم والدول الأخرى.

كانت تلك الفكرة الكبرى لماكنتوش، والتي لامست أعماق المشروع الذي دخل به العرب إلى العالم ولم يغادره. لكنّ المؤلّف ما تلبّث عند المشروع الحضاري طويلاً؛ بل انصرف للإنجاز

الدولتي أو الإمبراطوري: الخلافة. الخلافة التي أراد العرب الأوائل أن تكون مغايرة لمشروع الأكاسرة والقيصرة؛ بيد أنّ الشاهدين الرئيسيين لتلك الدولة المختلفة - دولة الأمويين - ودولة العباسيين الأوائل، ما كانتا مختلفتين بقدر ما أراد المؤسسون، سواء في دولة المدينة، أو في دولة الراشدين الأولين على الأقل! ومشكلة ماكنتوش - الذي أراد التجديد والإبداع في فهم هؤلاء العرب - مزدوجة:

المشكلة الأولى أنه نسي «فرادة» المشروع الحضاري والإنساني، وراح يبحث عن «عبقرية» العرب في إنشاء الدول.

**يرى ماكنتوش أنّ
المشروع العربي العالمي
قام على اللسان أو القرآن -
وهو ليس الأول الذي
يفتن بشخصية النبي ﷺ
ليس بوصفه شخصية
مبدعة فقط؛ بل بوصفه
قائداً سياسياً أيضاً.**



والمشكلة الثانية: البحث عن المشروع القومي في غير زمن القوميات، كما فعل فلهاوزن وحتّي والدوري وصالح أحمد العلي من قبل.

وما دامت فكرة الأمة/ الحضارة قد توارت عن الاعتبار ولم تعد في واجهة الاهتمام؛ فلا عجب ألا تصمد فكرته عن عبقرية العرب بظهور الدويلات وسيطرة «الشعوب» غير العربية على مقاليد الدول الإسلامية. وقد قاده ذلك إلى اعتبار خروج العرب من السلطة ذهاباً إلى أزمنة الانحطاط.. عدّد الدول والإمبراطوريات غير العربية السلطان، إلى أن كانت العودة العربية في زمن الاستعمار وما بعد، وإلى تراجع تجربة الدولة القومية العربية الحديثة، وشيوع السخط في سائر الأوساط العربية بل والإسلامية! أين الدعوة الأولى؟! وأين الحضارة العظيمة؟! ولماذا بقيت مئات الملايين مسلمة بل ومرتّبة بالقرآن؟!

وعلى أي حال بعد الدولتين الكبيرتين للعرب تأتي أزمنة ضعف «الخلافة»، وظهور السلطنات؛ لقد سادت في البلاطات الثقافة الفارسية. أما السلاطين والأمراء والعسكر فصاروا في معظمهم بعد الأيوبيين من سلالاتٍ تركية متعددة، كانت السلطنة العثمانية أطولها عمراً إلى أن زالت في الحرب العالمية الأولى! هذه الحقبة الطويلة يقسمها ماكنتوش إلى قسمين: 900 - 1350 الانحطاط والانطفاء، أو الكسوف: 1350 - 1800. في القسم الأول هناك الصراع على إرساء قواعد جديدة للسلطة على حساب الخلافة. والمصارعون من الشعوب التركية على العموم، والتقاليد السلطوية (= آيين المُلْك) فارسية. وقد استمات فقهاء الخلافة في التوفيق والتبرير حرصاً على الوحدة والاستقرار. وما جرى الاعتراف الكامل بالواقع الجديد حتى اجتاحت المغول بغداد (1258) وزال منصب الخليفة حتى في الصورة. ويميّز ماكنتوش بين مرحلتي الانحطاط والانكساف بأنّ المرحلة الثانية الكسوفية صار فيها السلطان خليفةً أيضاً بغضّ النظر عن التدقيقات التاريخية الضئيلة القيمة والمعنى.

مرحلة فيليب حتّي في التأريخ للعرب (تاريخ العرب المطوّل كما سماه بالعربية) هي المرحلة السردية. فلنذهب إلى المرحلة القومية أو

الأيديولوجية أو المنهج القومي والأيديولوجي مع ألبرت حوراني في كتابه: تاريخ (الشعوب) العربية.

ألبرت حوراني - الذي كان أستاذاً للتاريخ العربي في سان أنطوني بجامعة أوكسفورد لأكثر من ثلاثين عاماً - اشتهر بدراسته في الستينات الفكر العربي في عصر النهضة (1800-1935)، وهو تاريخٌ ثقافيٌّ موجزٌ لحوالي قرن ونصف من التاريخ الحديث للعرب في الزمن المتأخر للدولة العثمانية. وقد رأى حوراني أنّ الخروج العربي من حقبة (الانحطاط) الكلاسيكية سار باتجاه الاقتباس من النهوض الأوروبي الذي قاده المسيحيون العرب. وبالطبع فإنّ مسلمين كباراً ساروا فيه أيضاً؛ مثل خير الدين التونسي ومحمد عبده، وكانوا أكثر حرصاً على عدم القطيعة مع الإسلام، وإلى الإصرار على التجديد والتلاؤم. وقد صار كتاب حوراني مؤلفاً مدرسياً انتشر خلال أربعة عقود في الجامعات الغربية والجامعات العربية.

يُميّز ماكتوش بين مرحلتي الانحطاط والانكشاف بأنّ المرحلة الثانية الكسوفية صار فيها السلطان خليفةً أيضاً! بغض النظر عن التدقيقات التاريخية الضئيلة القيمة والمعنى.

ماذا أراد ألبرت حوراني من تاريخه للشعوب العربية؟ كتابه في الفكر العربي الحديث كان قراءةً في إشكاليات الحداثة الفكرية والثقافية.

أما تاريخه للشعوب العربية فأراده تأريخاً للحداثة السياسية في البلدان الناطقة بالعربية. ولذلك صارت الأمة شعوباً، بحسب المقولة الويلسونية كما فهمها البريطانيون والفرنسيون صنّاع سايكس - بيكو؛ لكل شعب دولة؛ أو ما صار يُعرف بالدولة / الأمة، أي إنّ الشعب المحدد إثنياً أو جغرافياً حلّ محلّ الأمة الشاملة. وهو الكاريكاتور المختار لنا من الدولة القومية الأوروبية. ماذا بقي من الأمة العربية / الإسلامية؟ ما بقي غير اللسان، والذي جمع الدول الجديدة أو المجدّدة بالجامعة العربية. وفي حين انصبّ جهد حوراني في كتابه في الفكر العربي على مسألة تغيرات المفاهيم أو تحولاتها في أعمال النهضويين، ما ألقى في كتاب الشعوب اهتماماً كبيراً لأفكار الوحدة العربية



والوحدة الإسلامية، بوصفها ضد أفكار العصر وممارساته. والمشروعات
الوحدوية الفاشلة هي الدليل الأوضح على ذلك. في حين كان مفكرون آخرون
عرب وأجانب قد درسوا تحولات المفاهيم وتأثيراتها في السياسات الإقليمية
والدولية، ومن ذلك «علمنة» مفهوم الأمة أو إعادة تركيبه بحيث تحل الأمة
العربية محلّ الأمة الإسلامية! ما كانت هناك بنية «مثالية» لأي من الدول
القومية أو الوطنية الجديدة. فتركيا الكمالية - التي أزلت عنها رداء الخلافة
والسلطنة بتاتا لصالح الشعب الواحد والأمة الواحدة - ظلّ رُبع سكانها من
الأكراد، والرُبع الآخر من العلويين المختلفين في الدين والمصريين على
التمايز رغم تنحية العامل الديني، وهذا فضلاً عن الآلام الهائلة التي نزلت
بالأرمن. ويمكن - باستثناء مصر إلى حدّ ما - قول ذلك عن معظم الدول
(القومية) العربية. وهوراني لا يرى أنّ سبب ذلك تنحية الإسلام، بل المبالغة
في الاعتبار الإثنية، والطائفية، والمذهبية، والجغرافية، والتي يستحيل معها
إقامة دولة واحدة كيانية لشعب واحدٍ موحدٍ من كل ناحية. فهذا يحتاج إلى
جهودٍ وعهودٍ ونخبٍ عاملة ومؤمنة بالمشروع القومي أو الوطني المصغّر.
وما توافر ذلك لزمّنٍ طويلٍ ومرّةٍ أخرى إلا في مصر.

وهكذا فإنّ ألبرت حوراني - والذي قدّم لكتابه بمقدمةٍ طويلةٍ نسبياً عن
الوجود العربي في الدولة الإسلامية الكلاسيكية - ظلّ حائراً في تكييف
المرحلة الحديثة والحاضرة لجهتي الدولة القومية، أو الدولة الوطنية. فمن
جهة هناك ضرورات التلاؤم مع النظام الدولي المعاصر، وهناك - من جهةٍ
أخرى - النتوءات البارزة بين الوطني والمحلي والقومي والعربي العام.
ولذلك ظلّ - وهو يؤرخ للسياسات المحلية والأخرى الدولية في دول (الشعوب
العربية) الجديدة - يشير إلى الهشاشة البارزة بالأصالة وبالتبع في كيانات
دول مثل لبنان والأردن والعراق والسودان. ولذلك فإنّ عنوان (الشعوب) رأى
أحياناً أنه لا ينطبق على الدول القطرية المختلفة كما يقول البعثيون؛ بل
وينطبق أيضاً على دواخل الكثير من الكيانات كأنّ عدة شعوبٍ حاضرة فيها!
وهذا كله والكتاب مؤلّف عام 2002، فكيف لو رأى أوضاع سورية والعراق
وليبيا واليمن ولبنان الآن!؟

إنّ طريقة حوراني أو منهجه في قراءة التجربة السياسية في إقامة الدولة الحديثة في البلدان الناطقة بالعربية، ما نجحت منهجياً في فهم أسباب إخفاقات تلك التجربة؛ ولذلك - وبخلاف كتابه في الفكر العربي في عصر النهضة - ما صار كتاب الشعوب نصاً مدرسياً Text Book معتداً به.

ولنصل إلى المقاربة الرابعة أو المنهج الرابع تجاؤزاً. وهو يظهر في كتاب يوجين روغان: «العرب، تاريخ» (2011). فمع أنّ النصف الأول من الكتاب يشبه كتاب برنارد لويس: العرب في التاريخ من حيث تركيزه على

المرحلة الكلاسيكية؛ فإنّ المهمّ نصفه الثاني الذي يركّز على التاريخ العربي الحديث. وهو لا ينشغل بالأفكار بل بالسياسات الدولية عبر ثلاث حقَب: حقبة سايكس - بيكو حيث صُنعت كيانات عربية جديدة، وجرى تثبيت وبلورة كيانات قديمة، عبر نموذج الدولة القومية أو الوطنية - والحقبة الثانية حقبة قيام إسرائيل والحرب الباردة - والحقبة الثالثة: الإخفاقات في تجربة الدولة الوطنية، وأثر السياسات الدولية في ذلك.

إنّ ألبرت حوراني - والذي قدّم لكتابه بمقدمة طويلة نسبياً عن الوجود العربي في الدولة الإسلامية الكلاسيكية - ظلّ حائراً في تكييف المرحلة الحديثة والحاضرة لجهتي الدولة القومية، أو الدولة الوطنية.

يوجين روغان من تلامذة ألبرت حوراني، لكنه بخلافه ما انشغل بالموضوعات الاستشراقية، ولا بالتاريخ الفكري أو الثقافي؛ بل اعتنى بالدراسات المعاصرة ذات الطابع السياسي والاستراتيجي؛ فله ثلاثة كتب عن الصراع على فلسطين، وسياسات الدول العربية إزاء حروب 1948 و 1956 و 1967، وأخيراً فلسطين في السياسات الدولية في الحرب الباردة. ومن الواضح أنه أراد أن يكون كتابه نصاً مدرسياً Text Book لطلاب السنوات الأولى بالجامعات. وهو نصّ مهمّ في فهم السياسات الدولية بمنطقة الشرق الأوسط بعد الحرب الأولى! لكنه يذهب أيضاً إلى أنّ التأثير كان متبادلاً بمعنى أنّ قادة المنطقة بما في ذلك الأتراك والإيرانيون كانوا يصيرون إلى طلب المساعدة



الخارجية من أطراف الحرب الباردة حتى لو كانت المصاعب التي يعانونها داخلية. وهو يعترف بأن قيام الكيان الإسرائيلي بدعم إجماعي من المجتمع الدولي، شكّل ضغطاً هائلاً على دول الجوار الإسرائيلي. إنما من جهة ثانية، وباستثناء مصر، ما اعتبرت الدول العربية الأخرى الصراع مع الكيان الجديد تحدياً رئيساً. ولذلك لم تُطوّر جيوشها وقواها. لكن من ناحية أخرى لا يتنبه حتى لتحدي التسليح والتسليح الذي أرغم عليه جمال عبد الناصر فخرج باتجاه روسيا السوفياتية، وكان أول قائد عربي يفعل ذلك؛ بينما ما كان بوسع الأردن - الأشدّ حاجة للسلاح - قادراً على ذلك؛ لارتباطه الشديد بالمعسكر الغربي. وهكذا يمكن القول عن بقية الدول العربية خارج الخليج؛ إذ اضطروا - لحاجات التنمية وحاجات الدفاع - للجوء للاتحاد السوفياتي، فازداد تعرض دول الجامعة للانقسام بين طرفي الحرب الباردة. وهو الأمر الذي أوضحه مالكولم كير Kerr في كتابه: الحرب الباردة العربية (1959 - 1968)؛ فالنزعة التدخلية الغربية والشرقية كان لها منذ أواخر الأربعينات ثلاثة حوافز: الصراع مع الاتحاد السوفياتي، والرد السوفياتي في ذلك الصراع - والاندفاع الشعبي العربي للتححرر، والخوف الغربي على تصدع صفوف الأنصار من الحاكمين، وبدء وصول راديكاليين للسلطة في المشرق - والحافز الثالث: همّ الدفاع عن الكيان الإسرائيلي الجديد، كل هذه العوامل يذكرها روغان؛ لكنه لا يرتب عليها الاستنتاجات الضرورية. وهو يندفع أحياناً إلى حدود القول بأنّ المستعمرين زرعوا «أعطالاً» في الدول التي أقاموها بحيث تظل في حاجة إليهم؛ إنما عندما سقط هؤلاء الأنصار جاء الراديكاليون، فانتقلت التبعية من الغرب الأطلسي، إلى الشرق السوفياتي، إنما بعد التخريب الحاصل من كل القوى والاتجاهات بالخارج والداخل، ما عادت السيطرة بيد أحداً

القسم الأول من كتاب روغان - كما سبق القول - متأثرٌ ببرنارد لويس، وحتى بألبرت حوراني. أما القسم الثاني الحديث فهو عملٌ أصيلٌ له نتيجة بحوثه وأعماله الكثيرة عن المشرق العربي إقليمياً ودولاً. والسياسات الدولية - وبخاصة منذ الأربعينات - طاغية فيه وعليه. لكنّ الساسة المحليين العرب ما كانوا ناجحين، لا في زمن التبعية للغرب، ولا في زمن التبعية للمشرق.

ولنعد إلى كتاب ماكنتوش في الخاتمة، هو يسمي فصل الكتاب الأخير: النهوض العربي: 1800 - إلى اليوم، وتتوالى فقراته على النحو التالي: اكتشاف الهوية والليقظات. وقد أفاد في هذه الفقرة من برنارد لويس وألبرت حوراني دون أن يذكرهما - وزمن الأمل: الناصرية والبعثية، والتحرير، والنفط - وزمن الخيبة: الأوتوقراطيون والإسلاميون والأنارخيون أو الإرهابيون. ويُنهى الكتاب بفقرة بعنوان: في محطة التاريخ.

في زمن كتاب فيليب حتي، وحتى كتاب برنارد لويس، وكتاب حوراني في تاريخ الفكر، كان المؤرخون متفائلين بالحاضر العربي والمستقبل العربي.

**إنَّ المستعمرين زرعوا
«أعطالاً» في الدول التي
أقاموها بحيث تظل في
حاجةٍ إليهم؛ إنما عندما
سقط هؤلاء الأنصار
جاء الراديكاليون،
فانتقلت التبعية من
الغرب الأطلسي، إلى
الشرق السوفيياتي.**

واستناداً إلى ثلاثة عوامل: التاريخ العريق والخروج من النير العثماني - وظهور الأهداف الكبرى في التحرر والوحدة والتنمية - والثروات العربية الطبيعية وغيرها والتي أسهمت وتُسهّم في النهضة التعليمية والعمرانية. بيّد أنّ البعض فارقه هذا التفاؤل من العرب وغيرهم، بعد هزيمة عام 1967. ثم فارق التفاؤل بعضاً آخر بسبب الانشقاقات في الإسلام من جهاديين وصحويين وانطلاق هذه الانشقاقات من الإسلام العربي - وأخيراً فإنّ قلةً قليلةً بقيت أملاً

بمستقبلٍ للعرب بعد اندفاعات السياسات الدولية والإقليمية للتدخل والتخريب في بلدان المشرق العربي، التي كانت فيها طلائع النهوض منذ القرن الثامن عشر.

ماكنتوش - الأشدّ تفاؤلاً ومسالمة - عنونَ لفقره كتابه الأخيرة ب: في محطة التاريخ، والمعروف أن كل محطة هي متعددة المخارج والاتجاهات. وقد اعتاد ابن خلدون على الاستشهاد في أواخر فصول مقدّمته بالآية الكريمة:

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ. وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21].